٣٦

مرويات الشّيخ جابر بن علي المسكريّ: المنهج التربويّ للإمام الخليليّ

د. أحمد بن جابر المسكري
أستاذ أصول الدين
كلية العلوم الشرعية، مسقط

مقدمة:

الحمد لله الذي شاءت قدرته أن يجعل في كل عصر منارات للهداية، تنير دروب السائرين إلى طريق الحقّ والاستقامة، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ سورة السجدة، (٢٤)، والصلاة والسلام على أعظم هاد للبشرية، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ سورة الأحزاب، (٤٥-٤٦)، صلّى الله وسلّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فمن دواعي سرورنا أن طلبت منا جامعة نزوى تحرير شهادة سيّدنا والدنا الشّيخ جابر بن علي المسكريّ يحفظه الله عزّ وجلّ للمشاركة بها في ندوتها الدولية: (الإمام محمد بن عبدالله الخليلي، ودوره الحضاريّ والعلمي في عمان)، وذلك باعتباره من البقيّة الباقية من طلاب العلم بمدرسته الفذّة.

فالشكر لهذه الجامعة المعطاء على هذا الاهتمام بإبراز أعلام عمان قديما وحديثا ووصل الحاضر بالماضي، لتسير أجيال اليوم السيرة الطيبة، وتنسج أردية المجد على منوال أولئك العظماء.

والشّهادة التي نحن بصددها آثرنا أن تكون محدّدة بالمنهج التربويّ للإمام الخليليّ رضوان الله تعالى عليه.

أولا: مرويّات الشّيخ جابر بن علي المسكريّ المتعلّقة بالمنهج التربويّ للإمام الخليليّ رضوان الله تعالى عليه:

"زار الإمام الخليلي إبراء مصلحا بين القبائل ومعه الشّيخ سفيان الراشدي والشّيخ منصور الفارسي، وتلقّاه الشّيخ علي بن سليمان الإسماعيلي عند الحائمة، وحاول جاهدا أن يوافق الإمام على زيارة النصيب، والإمام يرفض والشّيخ يحاول، إلى أن تدخل بعض الوجهاء من أصحاب الإمام وقالوا له: النصيب طريق، فوافق أخيرا، ووصل قرية النّصيب، فسمعت صوت المدافع من قرية اليحمدي عندما كنت أعمل في ضاحيتي آنذاك، فانطلقت إليه قابلته واحتضنني، وأمرني أن آتي له بكتب العلم، فأراني الشّيخ علي بن سليمان الإسماعيلي كنوزا من العلم في مندوس له، فأخذت منها للإمام لنقرأ له منها، ثم جاء بعد ذلك أهل اليحمدي".

"وكان من عادته، رحمه الله، تعالى أن يصلّي العصر في مساجد عديدة، ويأمر بسجن المتخلّفين عن الصّلاة، ومن عادته أيضا طول قيام الليل في سائر العام، عرفنا ذلك من صلاتنا معه في رمضان صلاة التّهجّد، وكذلك لاحظه الذين كانوا معه في أسفاره، فقد كان القويّ منهم من يستطيع إنزال فراشه من ظهر الدّابّة، بسبب المشاقّ العظيمة التي يتكبّدها المسافرون والسارون بالليل على ظهور الدوابّ، ومع ذلك ما إن ينام من كان معه حتّى يراه بعضهم واقفا بين يدي ربّه".

"كان المتزوّجون من الطلاب يستأذنون من الإمام فيرخّص لهم في عدم الإقامة معه، ويأمر لهم ببيوت خاصّة".

"كان رضوان الله تعالى عليه لا يسمح للمريض منّا أن يسافر إلى بلده خشية أن يزداد المرض بمشقّة السّفر، ومن طريف ما حدث لي أنّي أردت السّفر لبلدي، وكنت مصابا في عيني، فأخفيت عنه إصابتي فسمح لي".

"جيء إليه في يوم من الأيام بتباشير الرطب، حيث لم يذق الناس الرطب بعد في ذلك الموسم، فجاء به للمتعلّمين".

"حدث ذات مرة في مجلس الإمام أن جاء الشّيخ محمد بن سالم الرقيشي وعازم الشّيخ عبدالله بن علي الخليلي فردّ عليه الإمام: ولدك ولدك لا تعازمه".

"كان يخصّص لطلابه مبلغا من المال لتفصيل ملابس لهم عند بعض النساء في نزوى، وأمر طلابه بألا يسلّموا الأقمشة للنّساء مباشرة، بل بطريق أزواجهن، أمّا أنا فقال لي: أنت يسوّي لك دشداشة جماعتك أهل الشّيخ خميس بن سعيد الإسماعيليّ".

"عندما سافرت من نزوى إلى إبراء زرت الشّيخ محمّد بن سالم الرقيشي، فقال لي منكرا: ما الذي جاء بك؟ ويقصد بذلك حثّي على الاجتهاد في طلب العلم، وعدم مفارقة مدرسة الإمام، وعدم تضييع الوقت في التنقل هنا وهناك".

"كان الناس يقصدون الإمام الخليلي ليدعو لهم، ومن بين من جاء لذلك جماعة من الكويت وصلوا إلى نزوى وقابلوا الإمام وطلبوا منه الدعاء لأمر أصابهم".

"عندما أردت الذهاب إلى نزوى طلبا للعلم ذهبت لوداع الشّيخ ناصر بن علي المغيري، فقال لي: أتذهب هكذا دون رسالة؟ من يعرفك هناك؟ فزودني الشّيخ ناصر برسالة للإمام الخليلي يوصيه بي، وعندما سلّمت الإمام الرّسالة أعلى من شأنها وقال: (جمعة بن سعيد، جمعة بن سعيد)، عدّة مرّات، يشير إلى منزلة جمعة بن سعيد المغيري جدّ الشّيخ ناصر بن علي بن جمعة".

"أثناء قيامي في نزوى عرض عليّ أحد الشيوخ تعليمي علم الأسرار فرفضت، وآثرت علم الفقه، وقال الإمام الخليلي: علم الأسرار مات شيوخه".

"عندما زار الإمام الخليلي الشرقية أرسل إليه الشّيخ ناصر بن علي المغيري فراشا من الإبريسم (الحرير)، فرفض الإمام النوم عليه زهدا وبعدا عن ملذات الدنيا".

"قال الشّيخ ناصر بن سليمان الإسماعيليّ للإمام الخليلي أثناء حديثه معه عن بعض المشكلات القبليّة في الشرقيّة: شرجة القسمة، فردّ عليه الإمام بغضب: شرجة الشيطان".

"جاء رجل من أهل اليمن وقابل الإمام الخليلي وقال للطلاب: إمامكم هذا له كرامات، وأنتم لا تعرفون قدره".

"عندما زار الإمام الخليلي الشرقية أضافت امرأة من أهل البادية أحد عساكر الإمام في خيمتها، فبلغ الإمام ذلك فأراد معاقبته، فطلب أهل ذلك العسكري من الإمام أن لا يعاقبه هناك فيفتضح أمره عند القبائل، فعاقبه في سمائل".

"تعلّمت الفقه عند الشّيخ سعود بن سليمان الكندي في جامع نزوى، ودرست النحو مع الشّيخ حامد، وكان منهج الشّيخ حامد أنّه لا يزيدنا عن شرح بيت أو بيتين

من ألفيّة ابن مالك، ويمنعنا من قراءة الحواشي، وعندما ودّعت الشّيخ حامد عند سفري للبلد بكى كثيرا، وقال: الآن تسافر وقد بدأت تظهر عليك فتوحات العلم".

"جاء شيخ من شيوخ القبائل إلى الإمام الخليلي، وطلب منه أن يعلّمه شيئا من علم الأسرار، فقال له الإمام: اذهب للمسجد الفلاني، واقرأ كذا وكذا، وأعطاه وردا، فذهب ذلك الرجل وفعل كما أمره الإمام، وأثناء ذلك تفاجأ بجيش من النمل يهجم عليه فلم يستطع مواصلة تلك القراءة، وهرب من المسجد وعاد إلى الإمام يخبره بما حصل له، فقال له الإمام: أنت لا تصلح لهذا العلم".

"ومن كرامات الإمام أن أهل بدية تأذوا من الجراد وتخريبه للزّرع، فطلبوا منه الدعاء لرفع الأذى عنهم، فأمر بجلب شيء من الجراد، وقرأ عليه، وأطلقه في الهواء، وإذا بأسرابه تغادر بديّة، وخلّصهم اللّه من أذاه".

"حين وصلت نزوى أوّل مرّة وقابلت الإمام وعرضت عليه رسالة الشّيخ ناصر بن علي المغيري قبلني الإمام أن أتعلم معهم، وكان ذلك بحضور الشّيخ خميس بن سعيد الإسماعيلي من أهل نزوى، فطلب الشّيخ الإسماعيلي من الإمام أن أقيم معه، وآتي كل صباح للقلعة وحضور دروس العلم، فرفض الإمام ذلك، وقال: "جابر ولدنا يسكن معنا هنا في القلعة".

"كان من عادته، رضوان اللّه تعالى عليه، ألا يسمح لطلابه بالسّفر معه خشية اشتغالهم عن العلم، لذلك أثناء إقامتي عنده في نزوى لم أرافقه في أسفاره".

"كانت لدى الإمام ناقة من سلالة طيّبة وأصابها مرض في رجلها، فاستدعى الإمام خبراء الإبل من الدّروع وآل وهيبة وعجزوا عن علاجها، وعرضوا على الإمام شرائها منه لما علموا من طيب سلالتها، فرفض الإمام، وعقرها وأطعمها للناس".

"بينما كان الإمام الخليلي قادما من مسجد السّنود ومعه جمع من النّاس وكنت من بينهم، مررنا على خيل مربوطة، فلمّا رأت الإمام صهلت صهيلا، فتوجّه إليها الإمام، ومسح على رأسها ورقبتها، وقال لهم: هذه الخيل تشكو من الجوع، وأمر بإطعامها، فقطعوا لها من أوراق الغاف".

"دخل الإمام يوما من الأيام بيته وكان به بعض النسوة وسمع صوت حليهن فأمر زوجته أن تنصح النسوة عن ذلك".

"سمعت في إحدى الليالي صوتا غريبا أثناء إقامتي بمدرسة الإمام الخليلي في نزوى فحملت بندقيتي، وأردت اللحاق بمكان الصوت، وعندما وصلت باب القلعة منعني الحارس من الخروج، وأمرني بالرجوع لمكاني، وأخبرني أنهم يكفوننا المهمة، ولمّا أصبحنا أخبر الحارس الإمام بأمري وما بدر مني الليلة، فاستدعاني الإمام وسألني عن سبب ذلك، فرددت عليه بأنا لم نأت هنا للأكل والنوم، بل نحن معكم في السراء والضراء، فتبسّم الإمام وأعجب بجوابي".

"ومن تواضع الإمام ونبل أخلاقه أنّه توفي أحد العساكر فأبى الإمام إلا أن يشيّع جنازته ويصلّي عليه بنفسه".

"بعثت من بلدي اليحمدي قصيدة للإمام الخليلي وممّا قلته فيها: وأقرئك السلام ومن يكن * لديك أقام العدل يا سامي الذرى، فأشار الإمام بعصاه للحضور، وقال لهم: جابر يسلّم عليكم".

"بقيت في نزوى قرابة ثلاث سنوات أتعلّم فيها، ولم أنقطع عن اليحمدي، وكان الشّيخ هاشل بن راشد المسكري يكاتب المشايخ بتعييني مدرسا بعلاية إبراء، فعيّنني هناك، حيث درّست الملحة والألفية والدلائل، وأقمت في بيت الخروس، وتقاضيت راتبا من الإمام عن طريق الشّيخ محمد بن عبدالله بن هاشل المصلحي".

"كان الإمام الخليلي لا يبالي بالخروج دون حراسة، ولربّما ضاق عقيد العسكر ذرعا بذلك فيغضب على الحرّاس، فيقول له الإمام: أرواحنا ليست متعلقة بهؤلاء".

"لقيت من الإمام الخليلي، رضوان الله تعالى عليه، العناية الكبيرة، ولقد بلغ من عنايته، رحمه الله، أنّي أصبت بالحمّى يوما ما فأشرف الإمام بنفسه على علاجي وقطّع لي قطعا من الجح، وفي مرّة أخرى أصبت أيضا بالحمّى فأحضر لي لبن شاة، وكان يعالجها بذلك".

"أصيب أحد العساكر بحمّى شديدة فأمر الإمام، رضوان الله تعالى عليه، بأن ينزل جسده جميعا في الفلج، ويبقى رأسه فقط، واستشهد بما روي عن الرسول،

صلى الله عليه وسلم: (الحمّى من فيح جَهَنَّم، فأطفئوها بِالْمَاءِ)".

"أضافه مرّة من المرّات بعض النّاس لتناول القهوة، ورغب طلاب العلم أن يصحبوه، فمنعهم، وبعدما رجعوا أمر لهم بمثل ما تناولوه، وقال: اشتروا لهم حلوى وغيرها".

"لمّا هاجم الجراد نزوى كان من عادة النّاس أن يذهبوا ليجنوا منه، فطلب طلبة العلم منّي أن أكلّم الإمام بأن يسمح لهم بذلك، فلم يوافق، وقال: هؤلاء أمانة عندنا، وأخشى أن يتيهوا في سيوح نزوى، وعندما يأتي العساكر والعمّال بالجراد سنعطيهم منه"، وفعلا بعدما جيء بالجراد أمر بتوزيع شيء منه عليهم".

"كانت تقام في القلعة حلقة قراءة القرآن بعد صلاة الفجر ويحضرها الإمام بنفسه، وإذا زاد عدد الحاضرين يأمر بحلقات أخرى، ويجعل عليها أحد العارفين بالقراءة ليصحّح لهم، وبعد ذلك يتناولون القهوة ويتناولون وجبة واحدة بعد العصر".

"أثناء زيارة الإمام لإبراء صلّى بالناس صلاة الاستسقاء، وخطب قاضي الإمام الشّيخ سعود بن سليمان، وأغاث الله العباد في اليوم نفسه، وأصبحنا نصلّي الفجر والأودية تسيل عند بلدة الثّابتي".

"أثناء دراستي في نزوى اختلفت وزملائي في مسألة نحوية، ولمّا اشتدّ الخلاف رفعنا الأمر للإمام، فوافقني الرأي، رحمه الله".

"زار الإمام الخليليّ، رضوان الله تعالى عليه، إبراء مرّة أخرى وكنت مريضا آنذاك، فجاء إلي الشّيخ علي بن سليمان الإسماعيلي في بيتي باليحمدي وقال لي: لم يسأل الإمام إلا عنك، فلحقت بالإمام ومن معه في القابل، ثم رافقتهم الى بديّة ثمّ رجعت بعد ذلك".

"كان الإمام الخليليّ، رضوان الله تعالى عليه، يشجّع على القراءة في علم السلوك، وطلب ذات يوم القصيدة البائية للشيخ جاعد في السلوك، فألقاها عليه رجل خروصي كان يحفظها".

"جاء الإمام الخليليّ، رضوان الله تعالى عليه، في يوم من الأيام لصلاة الفجر،

وكان من عادته أنّه يقدّم غيره للصلاة إذا كان لم يصلّ سنّة الفجر، فقدّمني للصلاة، وفي أثناء تناول القهوة بعد حلقة قراءة القرآن بادرني قائلا: ركض بنا المسكري اليوم، فاستحييت".

"كان كثيرا ما يطلب منّي الإمام الخليليّ، رضوان الله تعالى عليه، أن أكون خلفه في السّترة، وكان يعاتبنا إذا صفّ في السّترة غير طلبة العلم من أهل الوجاهة أو السّنّ".

"كان من عادة الإمام الخليليّ، رضوان الله تعالى عليه، عندما يقرأ له الطلاب في كتب الجوابات الفقهية أنّه يبدأ بالكتاب وتتواصل القراءة في الكتاب نفسه إلى أن يتمّ، أمّا في التفسير فكانوا إذا تذاكروا معنى آية من كتاب الله يأمرهم أن يبحثوا عنها من كتاب الكشّاف للزّمخشريّ".

"أمر الإمام الخليليّ، رضوان الله تعالى عليه، أن أسكن أنا والسّيّد حمد بن سيف البوسعيدي، رحمه الله، في غرفة واحدة، وقال لمن يأتون لنا بالطّعام: أهل الشّرقيّة لم يعتادوا على تمر الفرض ولا يتحمّلونه، فكانوا يأتون لنا بأنواع أخرى".

"قصّ لنا الإمام الخليليّ، رضوان الله تعالى عليه، في يوم من الأيام عن الشّيخ سيف بن علي المسكري أنّه زار أخاه في الله الشّيخ عيسى بن صالح الحارثي في القابل، وكان الشّيخ عيسى خارجا لقرية الظاهر في حاجة له، فكلّم الشّيخ سيف أهل الشّيخ عيسى وقال لهم: أنا سيف بن علي ومعي بعض جماعتي، فاطبخوا لنا كذا وكذا للغداء، ولم يرتض أصحاب الشّيخ سيف صنيعه، وقالوا له: فضّحت بنا، ولمّا رجع الشّيخ عيسى أعجب بصنيع الشّيخ سيف، وقال: الشّيخ سيف سنّ فينا سنّة الصّحابة".

"نام واحد ممّن كان معنا في وقت العصر، فجاء بعض الطلاب وأخذوا سلاحه حذرا من أن يسرق، فبلغ ذلك الإمام الخليليّ، رضوان الله تعالى عليه، فغضب عليه، وعاتبه، ونهاه أن ينام في غير وقت النّوم، وأمر بردّ سلاحه إليه".

"وهذه قصيدة قلتها مادحا للإمام محمد بن عبدالله الخليلي، رضوان الله تعالى عليه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ألا فابتكرْ في مطلبِ العلمِ والأثرِ ... تنلْ خيرةَ الدارين محضًا بلا كدرْ
فإنْ نلتَ علمًا فاردفنْ عملاً به ... فلا خيرَ في غرسٍ إذا لم يكن ثمرْ
وخلّصْ هُديْتَ النفسَ من مهلكاتها ... عساكَ بها تنجو من الهولِ والخطرْ
فإنّ جهادَ النفسِ فرضٌ وصونُها ... عن اللّذِ يدنّسها فلا تهملِ الفكرْ
فحاشا امرأً شهمًا يرومُ مراقيًا ... إلى المجدِ من جبنٍ وبخلٍ بهِ يفرْ
هما المانعا عن نيل كلِّ جليلةٍ ... فكيف ينالُ الحمدَ من بهما اتزرْ
تحتلّ بأخلاق الكرام فإنها ... ملاكُ التقى تكسيكَ عزاً ومفتخرْ
وجالسْ لأهل العلم تكسَ جلالةً ... وَتُشْعِلُ أنوارَ البصيرةِ والفكرْ
ولبّ الذي أضحى إلى اللّه داعيًا ... بخالصِ إيمانٍ يزيلُ أذى البشرْ
ألا قد حبانا اللّه قَرْمًا غَضَنْفَرًا ... يقصّرُ وصفي عن محاسنه الغررْ
إمامًا قيومًا لا يبالي إذا سطا ... ولا يخشى الردى إذ أتى المكرْ
تدرَّع جلبابًا من الحلمِ والتقى ... وسادَ بني الدنيا بجامعةِ الخِيَرْ
ولو ساعدتْ أيامُه نحو عزمِهِ ... لفاق على كلّ الأنام من البشرْ
عدا المصطفى عينِ الكمالِ وذاتِهِ ... عليه صلاةُ اللّهِ ما كوكبٌ ندرْ
أقامَ وأزماتُ الزمانِ تفاقمتْ ... بكلّ شديدٍ كاد أن ليس ينحصرْ
فما آده كلّا ولا كلّ إذ رأى ... شدائدَها بل قابلَ الأمرَ بالبِشرْ
عطوفًا لأربابِ الديانةِ والهدى ... ومنتقمًا من ذي الخيانة والغدرْ
فلا عجبٌ أن صارَ في ذروة العُلى ... لعمري وهل تخفى الغزالة والقمرْ
فكم سبقتْ في الأقدمين مفاخرٌ ... لهم وساداتٌ بها جاءت السيّرْ
فذاك الخليليّ المفدّى محمّدٌ ... سلالةُ عبدِ اللّهِ سيّدنا الأبرْ

فحقا علينا نصرُه واتّباعُه ... وإما دعا وشْكا نلبّي ونأتمرْ
فحسبكم يا للرجال إمامُكم ... فلا تبتغوا فيه بديلا ولا وزرْ
يقدّسُ أرضَ اللهِ مذ قام للهدى ... من البغي والعدوان والظلم والبطرْ
أناطتُه للعليا عزائمُ همّة ... وقدوتُه أسلافُه الأنجمُ الزُهَرْ
فتعسًا لمن رامَ التخلّفَ راغبًا ... عن الحقّ في سُبل الضلالة ينعثرْ
رويدكم قد أيقظَ اللهُ أنفسًا ... فمن دونكم قاموا وشدّوا له أُزرْ
خليفتَنا إنّا نلبيكَ طاعةً ... ونصرًا ولا نرضى خلافك مستقرْ
فداكَ الورى قمْ للمهيمن ناصرًا ... يُبَوّئكَ المولى بجناتِه الخضرْ
ودونكم مني إليكم تحيةٌ ... وطيبُ سلامٍ قُرة العينِ والبصرْ
وصلوا على خير الأنام محمدٍ ... نبيِّ الهدى المبعوثِ بالحقّ من مضرْ
صلاةً وتسليمًا مدى الدهرِ ما غدتْ ... رجالُ الهدى في مطلبِ العلمِ والأثرْ.

ثانيا: المنهج التربويّ للإمام الخليليّ، رضوان الله تعالى عليه:

نحن أمام منهج تربويّ عظيم صاغه سيّدنا محمّد، صلّى الله عليه وسلم، من سبائك القرآن الكريم، وسار عليه الصّالحون من بعده، وطبّقه إمامنا الخليليّ، عليه من الله شآبيب الرحمة والغفران، طبّقه واقعا حقيقيّا ملموسا لا مجرّد نظريّات تدرّس في الكتب، أو مجرّد خطب رنّانة تثير عواطف العامّة. ولعلّ أهم ركائز هذا المنهج التّربويّ الخليليّ:

قوّة الإيمان:

كانت المدرسة الخليليّة مدرسة تعنى بغرس الإيمان بالله، سبحانه وتعالى، في نفوس مريديها، ومنها يشعّ نور الإيمان في أرجاء أرض عمان الطيّبة من خلال طلابه الذين انتشروا في أنحاء متعدّدة منه، متشبّعين بالإيمان الصادق، الذي ينير لهم ولغيرهم طريق الهداية والرّشاد. ومن شهادة الشيخ جابر يتبيّن أنّ هذا الإيمان ينغرس في نفوسهم من خلال الاهتمام البالغ بالصّلوات المفروضات، حتّى وصل إلى أنّه يسجن الذين يتخلّفون عنها، بل عاتب الشيخَ جابرَ عتابَ الأب لابنه

على سرعته في الصّلاة، حرصا منه على نيل أعلى مراتب الاطمئنان والخشوع فيها. وكذلك كان الإمام، رحمه الله، قدوة حسنة في التطوّعات مثل قيام الليل، الذي واظب عليه حتّى في أسفاره مع المشقّة. وكذلك يزداد إيمانهم بمحافظتهم على تلاوة القرآن الكريم يوميّا بمعيّته، رحمه الله. ومن دلائل قوّة إيمانه وزكاة نفسه الطيّبة إجابة دعائه، كما حدث في قصّة الجراد الذي صرفهم الله عنه ببركة دعائه، وفي قصّة السّيل الذي غمر الوادي بعد استسقائه لهم، وفي شهادة اليمنيّ له بالكرامات، وفي مجيء النّاس إليه من بلاد بعيدة ليدعو لهم. ونلمح أيضا البعد الإيماني وحبّه لتزكية نفسه ونفوس من حوله باهتمامه بعلم السّلوك، كيف لا وجدّه الشيخ سعيد بن خلفان الخليليّ، الذي ارتوى من معين المدرسة الجاعديّة في السلوك، وقد روى لنا الشيخ جابر أنّ الإمام، رحمه الله، كان يحبّ أن تقرأ له القصيدة البائية في السلوك للشّيخ الرّئيس.

قوة التّركيز:

لا شكّ أنّ التّركيز يصنع العجائب، وتأتي معه النتائج العظيمة والأعمال الجسيمة. ويبدو من شهادة الشّيخ جابر على ذلك العصر أنّ الإمام الخليليّ، رحمه الله تعالى، والأساتذة الذين تولّوا التّدريس والقضاء والإفتاء بمعيّته كانوا حريصين على تفعيل هذا المبدأ. فمن ذلك أنّه أصرّ على أن يسكن الشّيخ جابر بقربه، فيكون ذلك أدعى لطالب العلم للاجتهاد، وكان يمنعهم من السّفر معه إيثارا للعلم على ما سواه، على أنّ السفر معه فيه خير كثير، ومنعهم من الخروج معه لتناول الطعام الذي دعي إليه، أو الخروج للجراد ممّا يصاحب ذلك من تشتّت لتركيز طالب العلم. وكانوا عندما يقرأون له في كتب العلم يستمرّون في القراءة في الكتاب نفسه في الوقت المحدّد لذلك إلى أن يتمّ الكتاب. ونلمح هذا المبدأ أيضا في سلوك العلماء الذين كانوا معه، فقد ربّوا طلاب العلم على هذا المبدأ الجليل، فالمعلّم حامد يشرح لهم مقدارا قليلا كلّ يوم، ويرفض تشتيت أذهانهم بالحواشي. والذي فهمناه من منهج المدرسة الخليليّة كما يشهد الشّيخ جابر أنّهم لا يتكثّرون من العلوم في آن واحد، بل يمكث الطالب في فنّه فترة طويلة يكدّ في العلم نفسه، حتّى إذا تخرّج ألفيناه واعيا لذلك الفنّ أصوله وفروعه، بل هو علم من أعلامه. والحقّ والواقع يشهد أنّه لما تكاثرت الفنون على الطلاب ألفيناهم

يخرجون بحصيلة هزيلة، يصبّونها في ورقة الامتحان، ثمّ يخرجون منه صفر الكفّين إلا القليل النادر. والمبدأ نفسه نستشفّه من حديث الشّيخ الرّقيشيّ والشيخ حامد مع طلابهم وتأسفهم الشّديد لفراقه لتلك المدرسة.

قوة في سمو الأخلاق:

كان الإمام الخليليّ، رحمه الله تعالى، قمّة عالية للأخلاق، وآية من آيات الله في التحلّي بالتّواضع والكرم والرّحمة والتّضحية والمشاركة لمن حوله والاهتمام البالغ بهم. فمن يصدّق أنّ رجلا تولّى الإمامة العظمى يأتي ويقطّع بيده بطّيخة لمريض من طلبة العلم، أو أن يأتي له باللبن، أو غير ذلك من وسائل العلاج، أو يشاركهم في مسائلهم العلميّة، ويبلّغ سلام بعضهم لبعض، ويخرج في جنازة جندي من جنوده، ويرفض النّوم على الحرير، إنّه التّواضع العجيب النّادر. وقد حرص الإمام الخليلي على نقل هذا الخلق الفذّ إلى طلابه، فيؤكّد لأحد أولاده ألا يتقدّم على من هم أكبر منه سنّا وعلما. ومن أخلاقه الجليلة خلق الكرم، فكان كما هو معروف عنه لا يستأثر بشيء عن أصحابه، بل أن غداءه في كثير من الأحيان لا يوازي غداء من هم معه، وكلّما جيء له بشيء من رطب أو نحوه أتى به إليهم، والناقة آثر أن يوزّع لحمها على أن يبيعها. أمّا رحمته فحدّث ولا حرج، رحمته بالحيوان ظهرت في توقّفه عن السّير بسبب خيل صهلت، فقال: إنّها تشكو الجوع، وأمر لها بطعام. ومن الأخلاق الجليلة التي أولاها اهتماما خلق الأخوة في الله، ومن ذلك ذكره وإكباره لمن أضاف نفسه في بيت أخيه في الله كما مرّ في شهادة الشيخ جابر.

قوة النّفس:

كان الإمام الخليليّ، رحمه الله تعالى، يهتم غاية الاهتمام بمن حوله، فيحسّون معه بقيمتهم، وكان ينزل النّاس منازلهم، ويراعي حاجاتهم النّفسيّة، والأمثلة في شهادة الشيخ جابر عديدة. فعندما وفد إليه الشيخ جابر طالبا للعلم راعى تلك الرّسالة، وأثنى على الشيخ المغيري خيرا، وحثّ طلبته وأعطاهم الثقة الكاملة في تبوئ مكانتهم في الصّلاة وتعليم النّاس الخير، وأفاد من طاقاتهم، وأجرى لهم ما يعولهم من بيت المال أيام الطلب وأيام التدريس، ورافقهم في بعض أسفاره. وكلّما زار الإمام مكانا التمس طلابه هناك وسأل عنهم، ناهيك عن تفقّده لطعامهم وما

يناسبهم مثل قصّة تمر الفرض، وراعى مريضهم وبذل له العلاج، ومنع المريض ممّا قد يزيد مرضه كالسّفر مثلا، وشيّع جنائزهم، واهتم بتوفير المسكن الملائم لهم وللمتزوّجين منهم، بل تجهيز ملابسهم.

قوة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر:

كان الإمام الخليليّ، رحمه الله تعالى، ممن لا تأخذه في الله لومة لائم، يغار على حرمات الله، ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (سورة الحجّ: ٤١). فمن ذلك ممّا ورد في شهادة الشيخ جابر نهيه للنّساء من إبداء أصوات زينتهن، ومعاقبة الذي آوى إلى مسكن امرأة، وتصحيحه للمصطلح الذي يشير إلى عداوة.

قوة الاختيار:

لقد عرف إمامنا الخليليّ، عليه من الله شآبيب الرحمة والغفران، كيف يختار من معه، وعرف كيف يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن ذلك اختباره لمن أراد تعلّم علم الأسرار، وأنّه لا ينبغي أن يسلكه الإنسان دون شيخ عالم به.

قوة المبادرة:

أحبّ الإمام الخليليّ، رحمه الله تعالى، روح المبادرة والهمّة العالية والنجدة والتضحية، وحيّا تلك المعاني التي ظهرت من طلابه، فأعجبه مثلا موقف الشيخ جابر الذي خرج لمّا سمع الصّوت الداعي للخروج، ولم يعجبه تصرّف الذي نام في غير وقت النّوم وألقى سلاحه بجانبه، إنّه محبّ للمبادرة،

سمت به همّته فلا يرى إلا المعالي مكسبا ومتجرا

رحم الله الإمام الخليلي رحمة واسعة، وتغمّد روحه الطاهرة بالروح والرّيحان والجنان، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

أسهم في تحرير هذه الورقة:

- سالم بن جابر بن علي المسكري، تسجيل الشهادة صوتيا.

- محمد بن عامر بن سيف العيسري، تسجيل الشهادة صوتيا.
- عمر بن مسعود بن عامر المسكري، طباعة الشهادة إلكترونيا.
- أحمد بن جابر بن علي المسكري، تحرير وتحليل ودراسة الشهادة.